



Source : AN - NAHAR  
Date : 14-4-94  
Photo No. : 153

### ... واسم الهدف ؟

الآن وقد تراجعت الحكومة وانتصرت الصحافة، فهدأ الصخب، صار يمكن ادخال بعض التلاوين للتخفيف من الصورة البطولية التي نحب، كصحافيين، ومن كبيرنا الى صغيرنا، ان نعطيها عن انفسنا. بل صار لزاما علينا التعبير عن شيء من النقد الذاتي. ليس في اتجاه الانسحاق امام السلطات ولا التخلي عن منطق الدفاع عن الحريات، وانما لمساءلة مدى تطابق ممارستنا المهنية مع هذا المنطق.

بداية، لا بد من القول ان الضجة التي اثارتها محاولة تعديل المرسوم ١٠٤ بدلا من الفائه كانت في محلها. لكن المشكلة هي في الدلالة التي قد تعطى لهذه الضجة، وتحديدًا في الاستنتاج الذي قد يخلص الى ان الصحافة في هذا البلد كانت حرة قبل محاولة التعديل وان استهدافها كان لهذا السبب بالذات، في حين ان التجربة المهنية المعاشة، كتابة وقراءة، تبدد هذا الانطباع. لسنا هنا في معرض الاخذ بمعايير مهنية مثالية تُنسب عادة الى الصحافة الغربية، ولا يجوز نقلها بحذافيرها الى دول "عالمالتيمة". ما ننطلق منه هو المعايير المهنية التي كانت تعمل وفقا لها الصحافة اللبنانية، تلك المعايير التي تستند اليها اليوم، وان من باب الحنين الى ماضٍ عظيم غابر، في دفاعها عن الحريات.

ليس المرسوم ١٠٤ بطبيعة الحال، من الأشياء التي يمكن الدفاع عنها، حتى من المسؤولين في الحكم. غير ان نسبة العوائق التي تفترض حرية الصحافة الى هذا النص تحمل مقداراً من التضخيم. فحرية الصحافة لم تكن مهددة بالمرسوم ١٠٤، على عسفه، بمقدار ما كانت مهددة بما لا يتسع اليه نص تشريعي، عنيانا الامر الواقع الذي يكتسب وطأته، تحديداً، من كونه لا يدخل في اطار قانوني، فيستحيل تعيين مكوناته بدقة كافية. لذلك، لا يكفي تعديل المرسوم ١٠٤، ولا حتى الفأئه، لصون حرمة الصحافة. فالامر الواقع هو هو، ولعله صار اكثر وطأة، واكثر قدرة على الردع بعد هذه الازمة الصغيرة.

للامر الواقع ترجمة عملية واضحة: انه يُخضع كل المعايير المهنية الى معيار واحد اوجد: انه معيار السلامة الشخصية الذي بات يحدد تصرف الصحافي وكتابته. وكفي يكون النقد الذاتي ذاتياً بالفعل، لا يد من اللجوء هنا الى صيغة المتكلم للاعتراف بالطريقة التي تقول بها الصحافة الحقيقية. هكذا، تجدي مضطراً دوماً للفّ والدوران واستعمال مئة تورية واستعارة من اجل ان اقول ما اعتبره حقيقة، حتى صرت اخال اني استعمل لفة الشيفرة.

تلك الشيفرة التي اشعر اني اضطررت الى تعلمها كتابة، اشعر ايضاً اني اتعلمها قراءة كل يوم. مفرداتها صارت معروفة (مسؤول امني، قوة اقليمية، عاصمة عربية...)، صحيح ان الممارسة الصحافية اينما كانت تجيز تجهيل المتكلم، لكننا لا تجيز ابداً تجهيل الفاعل. والاهم من ذلك ان استخدام الصيغ المجهولة او المبهمة يهدف، عندما تكون الصحافة حرة، الى حماية حرية الصحافي، لا العكس كما يحصل في الشيفرة التي نستعملها. ثم ان القاعدة هي ان تبقى مثل هذه الصيغ قليلة في اي نص، في حين انها صارت المهيمنة عندنا.

ولكن، قد يقول قائل، اين المشكلة طالما ان الناس صاروا يفقهون الشيفرة من كثرة تكرارها؟ المشكلة هي ان الابهام، وان يكن قابلاً للترجمة، يؤدي مع مرور الوقت الى تنفير القارئ لأنه يقتنع في النهاية ان السياسة تدور في منأى عنه وانها شأن ناد مغلّق يتبادل اعضاؤه "الرسائل". كما انه يومهم الكاتب بأنه يؤدي واجب الاعلام (من أعلم) في حين انه لا يفعل غير الاقرار باستقلالية اللعبة السياسية عن المجتمع الذي يضطلع بمهمة اعلامه. انه الانقسام بعينه.

قد يكون من المفيد هنا العودة الى الشيفرة واللجوء الى استعارة كروية. اذ لنا في ما يحصل في مجال كرة القدم صورة اكثر جلاءً لما نحن عليه. تحدث اضطرابات في صفوف الجمهور وتتكسر، وبذل ان تتخذ تدابير ناجعة (قضائية، تنظيمية، اجتماعية... وسياسية)، يتقرر ان يستمر الدوري، وانما من دون جمهور. وهذا تحديداً ما يحصل في السياسة: سياسة من دون جمهور، فيما المعلقون، اي الصحافة، يمنعون من البوح باسم المهداف.

أيعني ذلك ان المعركة كانت وهمية؟ ابدأ. كان لا بد ان تخاض وان تنتصر الصحافة. ولكن هل سيسمح لنا هذا الانتصار بتسمية اللاعبين، في هذه المعركة كما في غيرها، ومن ثم باعلان اسم المهداف؟

سمير قصير